# لكي نفهم سلوك مافيات السلاح في العراق

د. ماجد السامرائي
كاتب عراقي

من الصعب على أي متابع أو محلل سياسي وضع تفسيرات وأحكام وتوقعات لما يحصل حالياً في العراق على مقاسات وأحكام أكاديميات الفقه السياسي ومناهجه، ذلك أن المواقف والأحداث تسير في بغداد تحت أحكام حيثيات وطلاسم مقفلة صاحبها وراعيها ولي "التقيّة والجهاد الشيعي" علي خامنئي.

الموالون لتلك القيادات الحزبية الشيعية المتورطة بالفساد والفشل هم وحدهم من يُفسّرون المواقف ويفككون الأحداث وفق فرضيات أولها التسليم بحكم الشيعة الولائية ومقدساتها المفضوحة، وثانيها عدم الاعتراف بالسياق الديمقراطي المعاصر الذي يفرض وفق قوانينه العامة تنحي الفاشل ومحاكمة السياسي السارق وإبعاده عن الحقل السياسي.

ما عدا ذلك، لكي تفهم افتراضياً وجدلياً ما يجري عليك كمثقف أو إعلامي أو سياسي عراقي وطني من خارج اللعبة أن تُبطئ حركة عقلك وتُرخي خيوطه وصولا إلى حافة الانهيار نحو الجهالة، وتوقف منطق جدلية الصح والخطأ، وتخرج من أبجديات العصر إلى التعاطي مع عالم لاهوت الشرّ فتفسر الوقائع وفقه، حتى وإن اختلفت في الجزئيات فإنك ستبقى ضحية تعميم التجهيل وقبول الخراب على أنه تجربة شيعية يمكن تصحيح بعض أخطائها.

الأخطر في تقديري على دينامية المواجهات السلمية التي تخوضها نخب الثورة الشبابية ومساندوها من الوطنيين العراقيين، ومنع وصولها إلى مراحلها الحاسمة في عزل جماعات الفشل والفساد في لحظة تفككها الانتخابي القانوني والدستوري الحالي، هم أولئك المتصدّرون لحوارات بعض القنوات الفضائية تحت عنوان "مفكر شيعي عراقي" وتحت مظلة النقد المُزيف يفلسفون لحظة الانهيار بتعمّد أخطر مما يسببه الموت الحقيقي الذي يسببه سلاح الميليشيات الموجه ضد المواطنين أو حتى رمز الحكومة.

هؤلاء أكثر خطورة من سَدنة الحكم، فهم يرمون شباك النجاة للقتلة والفاسدين في عملية تجهيل مُتعمد للعقل العراقي بتبرئة رموزهم وولاة أمرهم، وإحالة كل الخطايا والكوارث داخل العراق على الولايات المتحدة وإسرائيل حسب معلوماتهم السطحية، والاصطفاف مع رغبات الحكام المنبوذين من الناس وتحويل حلول الفشل والانهيار إلى ضرورة الدفاع عن الطائفة "الشيعية الحاكمة".

**تهديد زعامات الفشل والفساد بحرب شيعية – شيعية لا يُقصد به تخويف الناس المرعوبين أصلاً من ممارسات القتل والتجويع وانتهاكات حقوق الإنسان بل إذعان المتخاصمين حول درجات النفوذ في الحكومة المقبلة**

للخروج من معضلة البحث عن تفسير للوقائع يمكن الذهاب إلى عالم وقانون آخر، غير عالم السياسة، يمكن الاستعانة به كمرشد ودليل مساعد على فهم ما يحصل في العراق حالياً. شخصياً اهتديت إلى فرضية بسيطة وتشبيه قريب إلى ما توصل إليه الناس البسطاء في العراق من أحكام، اعتمدت الفطرة والتاريخ، على مجموعة سلطة الأحزاب وميليشياتها بأنها تشبه إلى حد كبير في الدوافع والسلوكيات ما يحدث في عالم المافيا. لهذا سأحاول من خلال هذه السطور الاستعانة بهذه المقاربة للوصول إلى فهم مُبسّط لما يحدث حالياً داخل العراق.

الكوارث الفردية والاجتماعية التي أدت وتؤدي إليها تجارة المخدرات في أميركا اللاتينية، خصوصاً المكسيك وكولومبيا، على المجتمع الأميركي معروفة من حيث مخاطرها الوجودية على الحياة الأميركية، مطيحة بالمنافع الإنسانية لمستويات التطور العلمي والتقني والرفاه الاجتماعي والفردي الذي أنتجه التطور المدني الهائل هناك، ومعرضة نسبا عالية من الشباب الأميركي إلى كوارث تحطيم الشخصية أكثر مما تحدثه الصراعات السياسية والطائفية وسلاح الميليشيات من فقدان لأرواح الناس في العراق، رغم فروقات المثالين.

من يتابع أساسيات عقيدة مافيا المخدرات ونظامها الداخلي العام لا يجدها بعيدة عن سلوك زعماء وقادة الإسلام السياسي الشيعي في العراق، بل هناك تجربة رثة تمارسها هذه الميليشيات في ميدان المخدّرات أيضاً، الهدف الرئيسي منها الحصول على المال، والخيار الأول لحلول المشاكل ولغة التخاطب بين الخصوم هو السلاح.. القتل بلا رحمة.

أمثلة كثيرة لمجموعة آل كابوني من مافيا المخدرات لا تختلف عن رموز نهب المال العراقي وعوائلهم التي أصبحت بحاجة إلى مسلسلات ذات عناوين كالتي تقدمها مؤسسة "نتفليكس" الأميركية التي أرّخت مشكورة لأساطير قادة مافيات المخدرات في أميركا اللاتينية. حيث قدّمتْ أمثلة واقعية بعرض درامي متميز لبعض الجوانب الإنسانية لأولئك القادة المجرمين مثل شخصية الكولومبي بابلو إسكوبار في المسلسل الذي يحمل اسمه، الذي فاز حقيقة وهو يمارس تجارة المخدرات بمقعد في البرلمان الكولومبي، وكان يبني من بعض أرباحه الخيالية المشاريع الخيرية للمحتاجين من الفقراء.

المثال الآخر إمبراطور المخدرات المكسيكي فيليكس غالاردو الملقب بماركوس زعيم مافيا الكوكايين الذي أغرق الولايات المتحدة بالموت الجماعي، كان ربحه السنوي يتجاوز أربعة مليارات دولار في ثمانينات القرن الماضي لكنه وقع في الخطأ القاتل باغتياله رمزاً من رموز الدولة الأميركية الوكيل السري لوكالة مكافحة المخدرات في المكسيك الذي تسلل إلى داخل منظمة كارلوس. هل تتكرر تجربة هذا الخطأ لدى زعيم أو أكثر من الميليشيات

في العراق لتواطئهم بتنفيذ مؤامرة قتل رئيس الوزراء العراقي مصطفى الكاظمي؟

مظاهر إنسانية متعددة تحصل في سلوك قادة المافيا لأهداف حماية المهنة لم تطابقها في هذا الجانب سلوكيات من يدعون التقوى والسير على خطى أهل البيت زعماء الإسلام السياسي الشيعي في العراق يشجعون من بعيد تجارة المخدرات عبر ما يسمى "الكبسول" القادم من إيران لتدمير الشباب العراقي، ويسرقون كل ما تصل إليه أياديهم وأيادي عملائهم من مال العراقيين معتقدين أن إرسال جزء منه تحت أغطية ما يسمى بالفقه الشيعي "الخُمس" إلى ولي الفقيه الإيراني سيحررهم من التبعية الفقهية دون اعتبار لتبعية القوانين الحكومية المحلية والدولية.

وفقاً لهذه الأمثلة من عالم المخدّرات قد نقترب من تفسير الوجه الخفيّ لما يحصل الآن من تصعيد لصراع النفوذ بين الزعامات الشيعية على هامش رفع الغطاء الانتخابي لبعضها واللجوء إلى التهديد بالسلاح كميدان طبيعي لحسم المواقف التي لا علاقة للشعب أو حتى بعض قوى المكونات الأخرى كالسنة والأكراد بها. إنها أزمة إمبراطورية مافيا الفشل والفساد ما زالت حتى في لحظات ما بعد مؤامرة اغتيال رئيس وزراء العراق الكاظمي تستخدم قوانين عالمها المافيوي في جعل السلاح وسيلة إذعان سياسي لقبول لعبة التوافق في قيام الحكومة المقبلة.

التصريح الصحافي لأحد ممثلي مقتدى الصدر نصار الربيعي، إذا ما صحّ، يقدم مثالاً مباشراً لسلوك الفريق الميليشياوي المهزوم حيث يقول إن "قادة الميليشيات فارغون ويتّبعون أسلوب الغدر في التعاطي مع خصومهم".

ويضيف "بإمكان التيار الصدري اعتقال المالكي والخزعلي والعامري خلال عشر دقائق". لكن لماذا لا يفعل ذلك ويريح العراقيين؟ يبقى سؤالاً مُحيّراً.

لعل من حسن حظ العراقيين أن ما كانوا يعرضونه من أمثلة عن عمالة زعامة الميليشيات لإيران يعترف به زعيم شيعي صدري هو الربيعي ذاته بقوله إن "منظمة بدر بزعامة هادي العامري كانت عميلة لإيران وتورطت في قتل الأسرى العراقيين إبان حرب الثمانينات مع إيران، هي نفسها عادت بعد 2003 إلى العراق لتشن حملة اغتيالات كبيرة ضد الطيارين والأطباء ومختلف الكفاءات العراقية".

هكذا إذن، تهديد زعامات الفشل والفساد بحرب شيعية – شيعية لا يُقصد به تخويف الناس المرعوبين أصلاً من ممارسات القتل والتجويع وانتهاكات حقوق الإنسان المستمرة، بل إذعان المتخاصمين حول درجات النفوذ في الحكومة المقبلة ومساحاته.

ومثلما وصل إليه حال إمبراطوريات مافيا المخدرات في أميركا اللاتينية من تفكك وانهيار أواخر القرن الماضي بسبب أخطاء النفوذ القاتلة، تتفكك حالياً إمبراطورية الفساد والنهب والعمالة للأجنبي في العراق، ولن تعيدها للحياة جرعات إسماعيل قاآني ووصايا ولي الفقيه خامنئي الذي يداوي عبثاً تهاوي وانهيار مشروع سيده الخميني في استمرار نفوذ الفوضى والعبث بمصير شعب العراق وشعوب المنطقة.

# الحق الذي لم نعرف كيف أضعناه

علي الصراف
كاتب عراقي

الصراع مع الأيديولوجيا ظل واحدا من أكبر المعضلات التي واجهت المنطقة. ليس لأنها شيء أشبه بالنظارة التي تحجب عنك رؤية الألوان، بل لأنها كانت لا تفتح إلا زاوية نظر واحدة أيضا، فلا ترى – بعد زوال الألوان – إلا جانبا ضيقا من الواقع.

التحرر من ضيق الأفق أهم من تحرير فلسطين. ذلك أن كل جهد في هذا الاتجاه سوف يذهب هباء من دون أن نمتلك القدرة على أن نرى الواقع كما هو، لا كما نتخيله.

كان المنطق، بحد ذاته، يفترض البدء من حقيقة أن تحرير فلسطين لا يتحقق بشعار "كل شيء من أجل المعركة"، بل بشعار "المعركة من أجل كل شيء". فما لم يكن الاقتصاد والعدالة الاجتماعية ودولة القانون هي رافعة القوة العسكرية، فإن الحروب، على رافعات هشة، سوف تدمر القوة العسكرية وتدمر كل شيء آخر معها. وهذا ما حصل.

القليل فقط من حكماء هذه الأمة هم الذين أدركوا تلك الحقيقة، أولئك الذين آثروا أن يبدأوا بعمران أوطانهم أولا، على أوجه تضمن لها المنعة والاستقرار. فهوجموا أكثر مما هوجمت إسرائيل نفسها.

وكنتُ على موعد مع دعوة لاختبار قدرتي على خلع النظّارة.

قبل نحو 25 عاما كانت "إسرائيل" ما كانت، عبر تلك النظارات التي تكاد ترتديها الغالبية العظمى من الناس، ويتقدمهم مثقفون وضع بعضهم نظارتين لكي لا يرى شيئا من الأساس، وذلك للدلالة على مدى أصالته القومية.

تلقيتُ دعوة من معهد "ويدرو ويلسون" في واشنطن للمشاركة في ندوة تعقد في قبرص ويشترك فيها 12 من الباحثين الإسرائيليين ممن انخرطوا في تيار "المؤرخين الجدد". وهو تيار بدا طليعيا في الدعوة إلى تحقيق السلام، ونقد الاحتلال وسياسات التعسف ضد الفلسطينيين.

كنتُ أعمل في هذه الصحيفة أيام كان يرأس تحريرها الراحل الحاج أحمد الصالحين الهوني، وهو رجل أقل ما يقال فيه إنه قومي، بل وناصري أيضا. ولم يكن بوسعي إلا أن أسأله رأيه، قبل أن أتخذ أي قرار.

سألني في المقابل: وهل ستقول هناك غير ما تكتبه هنا؟

قلت: بالأحرى فأنا أعتزم ترجمة بعض ما أكتبه هنا لأقرأه هناك.

قال: اذهب، ولا تخف.

شارك في الندوة عددٌ من الصحافيين والكتاب العرب البارزين. كما كان الوفد الإسرائيلي متنوعا، بين كتاب ومفكرين وسياسيين وإعلاميين ونشطاء حقوق إنسان.

جاء دوري لألقي كلمتي، فسألني مديرو الندوة عما إذا كنتُ أرغب بأن يحجبوا التسجيلات الصوتية عن كلمتي (على أساس أني ربما أكون خائفا). فأشرت بأن تبقى. قربت جهاز التسجيل، وتعمدت أن أجعل صوتي أكثر وضوحا.

مضت الكلمة، وكانت الوجوه تكشف عن انطباعات متضاربة. ولكنها أثارت نقاشا حاميا من بعد ذلك، تصدره حاييم صادوق وزير العدل الإسرائيلي الأسبق في حكومة غولدا مائير.

سألتُه خلال بعض الجدل ونحن نتحدث عن حقوق الفلسطينيين: كنتَ وزيرا للعدل، فهل كان كل ما قمتم به عدلا؟

قال: لا، لم يكن عدلا، ولكنه كان القانون.

قلت: الحقيقة هي أنه لا فرق بين قانونكم وقانون الغابة.

فانبرى إعلامي إسرائيلي شهير (لم أعد أذكر اسمه) يقدم برنامجا إخباريا رئيسيا على إحدى القنوات، ليهاجم الاحتلال، فقال وعيناه تغرورقان بالدموع (بعد كأسين ربما شربهما في الاستراحة) "ليس أنا. لا دخل لي بكل ما يفعله هؤلاء (مشيرا إلى صادوق). كل مشاكلنا جاءت منهم. أنا مستعد للتنازل عن بيتي في القدس من أجل أن ننتهي من هذا كله. ليس أنا".

تكهربت الندوة كليا. ولكن أمكن استعادة بعض الهدوء لبحث فرص وإمكانيات السلام ومخاوف الإسرائيليين من تهديدات الوجود التي يشعرون بها حيال استمرار الصراع سواء مع الدول العربية أو مع الفلسطينيين.

لم أشعر بالأسف أبدا على المشاركة، ولا التسجيل، ولا حتى على الصور التي التقطها لي (لا أعرف من أجل ماذا) أحد الصحافيين العرب الذين شاركوا في الندوة. وأستطيع أن أقدر أين تكون تلك الصور الآن.

**حالة من الضعف والخواء وانعدام الثقة بالنفس لم تمنع من معرفة الإسرائيلي على حقيقته فحسب ولكنها منعت من بناء فهم صحيح لطبيعة «المجتمع» الإسرائيلي وانقساماته وتناحراته الأيديولوجية ومصادر التأثير فيه**

لم أتلق دعوة أخرى أبدا.

عدت إلى لندن، وجمعت كل أوراقي التي حملتها إلى هناك، وجعلتها في ملف، كتبت عليه ساخرا "ملف الخيانة والعمالة والتطبيع مع الصهاينة"، وذلك على اعتبار أن كل مَنْ تحدث مع إسرائيلي أصبح خائنا وعميلا للصهاينة حتى ولو أبكاهم على رؤوس الأشهاد. ذلك أن تلك هي لغة أصحاب النظارات. وهي ذاتها اللغة التي ما يزال يتداولها من لم يقدر أن يقول الحق، ولا حتى أن يراه.

النظرة الجامدة إلى الإسرائيلي باعتباره بعبعا هي التي منحته الشعور بالتفوق، وأنه "قوة لا تقهر". كيف لا، وهو يراك تهرب كلما طلع عليك من زاوية الشارع أو نط على ناظريك من الشباك.

ولقد أمضينا نحو ثلاثة أرباع القرن ونحن نقدم للإسرائيلي تصورا سطحيا، أولا، باعتباره عدوا من دون تفاصيل. وثانيا، لا يجوز الاقتراب منه لكي لا تصيبك العدوى. وثالثا، لا تتحدث معه، لأنك ما أن تفعل حتى يحولك إلى عميل.

حالة من الضعف والخواء وانعدام الثقة بالنفس لم تمنع من معرفة الإسرائيلي على حقيقته فحسب، ولكنها منعت من بناء فهم صحيح لطبيعة "المجتمع" الإسرائيلي وانقساماته وتناحراته الأيديولوجية، ومصادر التأثير فيه.

النظر إليه كقالب استعداء حوّله في النهاية إلى قالب استعداء حتى حيال فهم واقعه كقوة احتلال وانتهاكات يومية وجرائم استيلاء لا يسندها إلا الادعاء الباطل والقوة المسلحة والأوهام.

الإسرائيليون ليسوا مجتمعا متجانسا، وجانب كبير منهم لا يقبل بعضهم الآخر، ولا يعترف به أيضا. ويمكن لكل ناظر أن يرى كيف أن أحزابهم هي في الواقع دكاكين صغيرة، كل منها يتبع حيا أو حارة أو مجموعة محدودة من البشر، وبالكاد يمكن جمع ائتلاف منهم لا تهدده تمزقات ونزاعات. ولكنهم كالصخرة الجلمود عندما يتعلق الأمر باستعدائنا.

نحن الذين نوحدهم. نحن الذين وضعناهم في القالب. ارتدينا نظارات، فلم يعد بوسعنا أن نرى من "العدو" شيئا، إلا بما سبقناه من الافتراضات. ولئن ظل هذا "العدو" يبحث في تفاصيلنا الطائفية والعرقية ويبني مخططات لاستغلالها وتمزيقنا بها، فإننا لم نعرف من تفاصيله إلا الهزيل والسطحي، وكان من الطبيعي أن نعجز عن بناء مخططات.

ما المشكلة في أن يكون هناك حزب أو مجموعة أحزاب في إسرائيل قادرة على أن تقفز من خندق الاستعداء إلى خندق السلام؟ ما المشكلة في أن نكون نحن "العدوى"، ونحن البعبع؟

لقد فشلنا في هذا أيضا. وضاع "المؤرخون الجدد" في غياهب النسيان.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk